ولم أر احداً حكى قول الاصفهاني الا وأتبى عليه باللوم . ونحن لانرى في الطعن فائدة (١) لانا نعلم كغيرنا انه مامن أحد غير انبياء الله ورسله الا ويؤخذ من قوله ويترك ومن تتبع الغلطات ولو من كبار الرجال وجدها في كل شيء من الاشياء وامر من الامور ولا يبقى بيديه شيء من الحق وذلك هو الخسران المبين

آثار علمية حكمية

كتاب التربية

ألف علماء اوربا كتبا كثيرة في فن التربية فلما كتب في ذلك الفيلسوف سبنسر كان ما كتبه ناسخا لطريقة من قبله ولكثير مما جاؤا به وقدوة جديدة لمن عاصره ولمن يجيء بعده فهو الذي بنى قوانين التربية على أسس المنفعة و بين خطأ الناس في تقديم الزينة على المنفعة كما جرى عليه المتوحشون من اقدم زمن يعرفه التاريخ . وكتابه في التربية أشهر من أن يذكر فينوه به وقد ترجمه بالعربية محمد

(١) المنار : قد أحسن الكاتب في عدم اقراره لصديق حسن خان على طعنه هذا بأبي مسلم واين هو من ابي مسلم بل اين منه شيخه الشوكاني في فهم القرآن ؟ اننا نجل الشوكاني ونعرف له فضله في علوم الحديث والآثار والفقه ولا نظن انه نبز أبا مسلم بالجهل ونحمد من صديق حسن اهتداءه بكتب الشوكاني ومحاربته للتقليد وان كان في عامة أحواله مقلدا للشوكاني ولكننا لانرى طعنه هذا في أبي مسلم الا هفوة من هفوات الغرور . نعم ان لابي مسلم غلطات ولكن اي عالم كتب او الف أو ابدى علما وفهما فسلم من الغلط والخطأ ؟ ألم ينكر هو والشوكاني على الائمة المجتهدين وعلى من قبلهم من علماء السلف كثيرا من المسائل حتى بعض فروع مسألة النسخ ؟ ألم يحصر الشوكاني المنسوخ في بضع آيات ويخطئ المتقدمين في سائر ماعدوه منسوخا ؟ فكيف يعد أبو مسلم من أجهل الناس بالشريعة ان وجد لهذه البضع الآيات معنى ينافي النسخ بالمعنى الخاص الذي ينفيه ؟

افندي السباعي أحد محرري الجريدة وطبع في مطبعتها طبعا حسنا على ورق جيد فبلغت صفحاته ١٤٣ وجعل ثمنه عشرون قرشا وهو يطلب من ادارة الجريدة

مجموعة الخطب

تمنى كثير من أهل العلم والأدب لو تطبع الخطب التي تلقى في نادي دار العلوم وكاشفوا رئيس النادي (حضرة بك ناصف) بأمنيتهم فوافقت رغبته رغبتهم وقرر مجلس ادارة النادي طبع الخطب التي يكتبها اصحابها . وقد طبعت المجموعة الاولى فأودعت ثماني خطب في موضوع اللغة والتعريب والترجمة فبلغت زهاء مئة صفحة وجعل ثمن النسخة منها قرشان ونصف قرش وهي تطلب من النادي بشارع عبد العزيز (نمرة ٥)

بلاغات النساء

كتاب لطيف من تأليف ابي الفضل احمد بن ابي طاهر المحدث المؤرخ (المتوفى سنة ٢٨٠ اودعه ما رواه عن النساء من خطبهن وطرائف كلامهن وملح نوادرهن واخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الاسلام ففيه من الخطب خطب عائشة ام المؤمنين في فضائل ابيها ورثائه وخطبتها السياسية بالبصرة وخطبتها لما بلغها قتل عثمان . وفيه خطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لما منعها أبو بكر ميراثها وغير ذلك من خطب وكلام امهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن وعن ازواجهن وكلام غيرهن في السياسة والآداب والمدح والرثاء ومن احسنه كلام كثيرات منهن مع معاوية في مخاطبته بما كان منه . وفيه كثير من كلام النساء في الازواج مدحاً وذماً ووصاياهن لبناتهن والتعبير عن سائر أغراضهن نثراً ونظماً ، وليته خلا من اخبار مواجنهن ، واحاديث رقتهن ، اذاً لكان الكتاب ، جديراً بعناية الشبان والشواب ، لما فيه من روائع الآداب ،

طبع الكتاب احمد افندي الالفي طبعا حسن على ورق جيد وشرح في هوامشه

ما رآه خفيا من مفرداته حتى بعض كلم الرفث والمجون الذي كان اجدر بالخفاء منه بالظهور ، وقد بلغت صفحاته زهاء ٢٠٠ من قطع المنار وجعل ثمن النسخة منه عشرة قروش صحيحة ويطلب من المكتبات المشهورة

مطالع البدور في محاسن ربات الخدور

هو كتاب خاص بوصف محاسن النساء نظماً ونثراجمع فيه واضعه محمد سليم بك ابو الخير الانسي ما اختاره ذوقه من كلام المتقدمين وما جادت به قريحته في ذلك ومثل هذا الوضع لا يحتاج الى من ينوه به ولا يرغب فيه . لذلك كتبنا عنه هذه الكلمات قبل مطالعة شيء منه وقد جعله جزئين لطيفين طبع أحدهما وشرع في طبع الآخر وثمنهما عشرة قروش وثمن الذي طبع وحده خمسة قروش ويطلب المكتبات المشهورة

تحفة المجالس ونزهة المجالس

كتاب لطيف في المحاضرات يعزى الى جلال الدين السيوطي جمله حكايات وأخبار في فضل العقل والعلم واخبار الأولين من الأنبياء والخلفاء والملوك والقضاة والمتلصصين والنساء والعشاق . طبعه الحاج محمد افندي دربال التونسي التاجر بسوق العطارين بالقاهرة وقد جعل ثمن النسخة منه خمسة قروش صاغ وهو مما يرجى رواجه لتوفر الرغبة في امثاله من كتب الفكاهات والمحاضرات عند جميع طبقات الناس ولرخص ثمنه

الحمامات المعدنية

رسالة موضوعها التداوي بالحمامات المعدنية في القطر التونسي وضعها الطبيب يوسف بلغة أجنبية ونقلها عنه بالعربية الشيخ محمد بن حسين يبرم في عهد محمد بن حسين باي ونقلها الى اللغة العربية ووضع لها مقدمة من عنده . وقد طبعها في هذه

الايام طابع كتاب تحفة المجالس وقد جعل ثمن هذه الرسالة قرشين ونصف قرش فحث القراء على مطالعتها لما فيها من الفوائد المتعلقة بالاستحمام بالمياه المعدنية ونخص بالذكر اهل تونس لما فيها من الكلام عن حماماتها بالتفصيل

الاسلام — والرد على لورد كرومر

كتب أحد فضلاء المصريين مقالات دينية في الرد على لورد كرومر نشرها في جريدتي المؤيد واللواء بتوقيع « أبقراط » ثم جمعها وطبعها على حدتها فبلغت ٦٤ صفحة . منها مقالة في المقابلة بين الإسلام والنصرانية ومقالة في (المرأة في الإسلام والنصرانية) وسائر المقالات في الرق وتعدد الزوجات والطلاق والعبادات والجنة والنار والجهاد . ولعل هذه المقالات أحسن ما نشر في الجرائد ردا على كتاب لورد كرومر (مصر الحديثة) وثمن النسخة منها ثلاثة قروش

تقرير السير ألدن غورست

كان الناس ينتظرون هذا التقرير انتظار من يتوقع شيئا جديدا في أمر عظيم لما شاع وذاع ونشرته الجرائد في جميع البقاع من ان الانكليز غيروا سياستهم في ادارة هذه البلاد منذ استقالة لورد كرومر ارضاء للمصريين الذين اظهروا السخط من الادارة السابقة . وكان الكثير يظنون وهم لم يروا من السر ألدن غورست المعتمد الجديد عملا جديدا يخالف طريقة سلفه اللورد أنهم سيقرءون في تقريره عن سنة ١٩٠٧ شيئا جديدا يستنبطون منه كنه السياسة الجديدة . وكانوا يظنون أن من فروع التغيير في سياسة الوكالة البريطانية بمصر حرمان اصحاب المقطم من ترجمة التقرير السنوي بالعربية وطبعه واهدائه الى المشتركين في جريدتهم وبيع طائفة منه فلما جاء الموعد وظهر تقرير العميد الجديد بمصر بالانكليزية والعربية في وقت واحد كالعادة قالوا « ما أشبه الليلة بالبارحة » ورأوا صدق قول لورد كرومر « يذهب انكليزي ويجيء انكليزي » فقد نسج غورست على منوال كرومر ورمى عن قوسه قالوا إلا في مسألة الصلة الشخصية بالامير فان هذا يحاسنه بقدر ما كان ذلك يخاشنه

وصرح بعض الاحزاب بان هذه الحماسة تخشى ولا ترجى ويقول آخرون غير ذلك وسترينا مصداق أحد القولين حوادث الايام، لاسيما بعد زيارة الامير لملك الانكليز في هذا العام، ومهما قيل في هذا التقرير وما قبله من حيث السياسة فلا خلاف في ان هذه التقارير تواريخ رسمية، لادارة البلاد المصرية والسودانية»

كلمات لقاسم بك امين

كان قاسم بك أمين الذي نعيناه الى القراء في منار الشهر الماضي يكتب بعض ما يسنح له من المعاني التي فيها عظة وحكمة وما يعن له من الآراء والخواطر او يراه من غريب المناظر. وقد ألقى الى ادارة الجريدة ما كتبه من ذلك فطبعته وأطلقت عليه هذا الاسم «كلمات لقاسم بك أمين» فكان زهاء ستين صفحة مثل صفحات كتاب الاسلام والنصرانية وجعلت ثمنه عشرة قروش صحيحة تعظيما لقيمته المعنوية واننا ننقل من فرائد تلك الكلمات أحسن نموذج للقراء وهو:

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر

ان الذي يمدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك

رب كلمة يتجرعها الحليم مخافة ما هو شر منها

اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

تعصب أهل الدين وغرور أهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم وليس بصحيح ان يوجد بينهما خلاف حقيقي لا في الحال ولا في الاستقبال مادام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره — بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها. الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم أي بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف. هذا المجهول الذي كان ويكون بعد الذي لا قرار له ولا حد لا في الزمان ولا في المكان هو دائرة اختصاص الدين

المقلد في إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما يحمل الوردة في عروة الملابس ، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول ان كان الله غير موجود ماخسرت اكثر من غيري وان كان موجودا ربحت مع الرابحين لذلك اومن به . هذا هو المحتال الذي لا يصان أحد حتى الاله من نصبه

أتعس البرية انسان ضاع إيمانه يدس الموت بسمه في حياته فيفسد عليها لذتها وينغص عليها شهوتها

وسننشر بعض آرائه في أهل عصره

شقاء المحبين

قصة في جزئين من وضع اسكندر دوماس الفرنسي الشهير وترجمها بالعربية حنا افندي الصحوري الشاب الدمشقي الذي نبغ في آداب هذه اللغة في سن الصبا نبوغا قلما قارن به في مثله احد من المشهورين بالترجمة والكتابة في هذا العصر ولولا ان فاجأته المنية في نحو الثامنة والعشرين من سنه لرأينا من آثار قلمه ما يعد من آيات حياة العربية

فلما رأيت ترجمة لاحد من الكتاب المعروفين كترجمة هذه القصة تكثر فيها فوائد اللغة التي هجرها الكتاب لقلة اطلاعهم وتزين بالامثال والاقتباس والتضمين وحل المنظوم من كلام الشعراء الاولين المجيدين وتقل فيها الاغلاط الشائعة الآن

طبع القصة ابراهيم افندي فارس صاحب المكتبة الشرقية في جزئين واهدى الينا نسخة منها وعهد الينا ان لا نكتب عنها شيئاً الا بعد قراءتها ففعلنا لا بد لهذا من سبب فلما قرأنا صفحات منها علمنا انه عهد الينا بذلك لعلمه بأننا نعرف قيمة هذه الترجمة البليغة . وثمن الجزئين معاً عشرون قرشا وهي تطلب من طابعها

﴿ القطر المصري ﴾ مجلة سياسية أسبوعية تؤيد سياسة الحزب الوطني بمصر انشأها أحمد افندي حلمي اشهر محرري جريدة اللواء في عهد مؤسسها واذا كان من مروجي جريدة اللواء بقلمه كما هو معروف فلا غرو أن تروج مجلته وهي كبيرة الحجم قليلة الثمن اذ قيمة الاشتراك فيها ٥٠ قرشاً في السنة

الفصل الخامس (*

« مقام خديجة » عند قومها

ما أكرم هذا المقام، وأي بليغ لا تأخذه الهيبة اذا دعي لتصور هذه المنزلة ؟ سيدة بطلعتها الفخامة والشرف يتجليان ، والجمال والكمال يتألقان،

ومزايا كالزهر تفعاً وطيباً وكزهر السما بهاءاً ونورا

من شرف حسب ، الى كرم محتد ، الى سؤدد قبيل، الى حسن عشيرة ، الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجى، الى طهارة نفس، ذلك ما كانت تتزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحل به بين قومها في المكانة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، ولا نبأها بغريب من الانباء ، بل هي معهودة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمهن نصيب يغير الخمول ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكرهن ، ولم يسم في أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؟

انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها . ذلك الشيء هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعهم. وليس بكاف لتعالي امرىء ان يكون كاملاً بل يجب مع ذلك من احاطة قومه علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ومن المشهور ان الحجارة

(*) من سيرة السيدة خديجة

الكريمة عند من لا يعرف مزيتها لا قيمة لها وهي عند عارفيها فوق القيم فالحق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلاً على فضله وسعادة جده وحده بل هو دليل ايضاً على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم ، فقد ربح قوم كان للافاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لا يعلو بينهم الا من استعان بجيش من الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع ،

واذا كنا معجبين بالسيدة « خديجة » لو فرة مزاياها الشريفة فنحن بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجابا . وليست «خديجة» وحدها هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام الكريم فيهم وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي نقل العرب وغيرهم الى أعلا مما كانوا فيه ولم يستطعن ذلك الا بما لهن من القدر الذي يليق بانسان ذي رأي مسدود وعقل مذكور ، ونفس مشابهة وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب ابا العدل وابا الفتوح وابا السياسة والادارة لم يكن اسلامه إلاّ بمحاورة سيدة من اولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

نحن نعلم أنّ أكثر الناس يمرون بالمزية يعهدون أمثالها فلا يلتفتون اليها مالم تكن رائعةً وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضارّ لان فيما يعهدونه ايضاً ما يستحق الالتفات اليه ، ويغري بالانتفاع منه ان كان مفيداً ، والتغافل عن الانسان المفيد اذا لم يكن فوق العادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك الرائع المنشود ، والسامي الذي هو فوق المعهود

ولا يمكن القارىء في ان كثيراً من الاشياء التي صرفتنا الألفة عن إجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الإمعان فوق ما تصور . وفي كثير مما لا تفكر فيه منها ما تحير الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسراره . فلذلك أحببنا ان نمر بقارئنا سرعة في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لا مرعا احتاج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارئنا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات ، ولا يطربون بغير الغرائب

نعم ، نحن لم نطرف بما فوق المعهود ، ولم نُهد ما وراء المشهود ، ولا عدنا بمبتدعات التصور ، ولا قدنا بغرائب المرادات ، وشواذ المصادفة وخوارق العادة ، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال ، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار ، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا . واذا ثبنا اليها بنظر الإمعان غير وسنانة من بصيرتنا ألفيناها عند سأم النفس من لذة الحس ، أعظم ما تتوق اليه من لذة التصور وفائدة الإدراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا ان نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار ولم يكن حسبنا ان ننسى أحاسن ما تلد لنا هذه الام من الصور التي لا تحصى اننا نتذكرنا من سادوا وشادوا ، ونتذكرنا من صلحوا وأصلحوا ،

بتذكرنا من أوجدوا وابتدعوا. تتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا باستجلاء أحسن صورها، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولا بسي تلك الصور، ولم لا تتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا ان تحيط بكنه جواهر مخبآتها فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيانها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل « خديجة » والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة، فقد أبدع لنا في « خديجة » المثال الاسنى منها، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الأعلى، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ، منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور. ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ثم للتربية دخل كبير فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمعتا في «خديجة» فرأينا في سيرتها ذلك المثال السني والكمال السمي

عرفنا حسن استعدادها لان التربية وحدها لا تعمل شيئاً في جوهر النفس اذا كان غير صالح لفعلها كما لا يصلح الماء لان تطبع فيه ما تشاء، وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في المجتمع

ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلما رأينا من نوّه به او التفت اليه فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم «خديجة» ارتقاء عظيماً فان التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية. والمجتمع غالباً اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتا عنه. وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر، ويضطر الناس الى تقرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبح في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجبه على نفسه، وذاك يستقبح شيئا حتى يحرمه عليها. وأعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معياراً لها فكل ما قرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف، وكل ما قرب من المنكر كان مستذلاً ويكون حظره على حسب درجة قربه من المنكر. والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها

وأي باحث لا تأخذه هيبة الاطلاع على ما كان لقوم خديجة من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضاربين في تلك الفيافي، يدهش المطالع ما يراد لهم من الباع الطويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذلك. فترى مثلا لما كانت السباحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بقوا بهم في الجود الكواكب وازينت الارض بمناقب همهم، وايثارهم الايثار على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي آثر رفيقه بالماء ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسيروا فيها ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا يتمادحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت على الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير — وهو ابن أخي خديجة — قتل أخيه مصعب خطب فقال «ان يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه. اننا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف» وان يقتل المصعب فان في آل الزبير خلفا منه، ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة ولمثل هذا يقول علي ابن أبي طالب «بقية السيف أنمى

سيداً، وأطيب ولداً، وتقول الخنساء وهي احدى الشهيرات في العرب:

تهين النفوس وبذل النفو ... س يوم الكريهة أبقى لها

لا يستنكرنّ احد اذا قيل له ان الشجاعة وهي السجية التي لا ترقى الامم اذا خلت منها كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدّون بأحد منهم مالم تكن فيه وقد سهل على قومهم انطباع هذا الخلق فيهم ان أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقدامهم في الشدائد حتى فضلوا، والجبناء واحجامهم فيها حتى رذلوا، وهنالك من الشعر في الشجاعة والشجعان مايفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف على الحياة والهرب بها الى الخوف على الشرف حتى تهون النفوس في سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل ... لابدان أسقى بكاس المنهل

فاقني حياءك لا ابالك واعلمي ... أني امرؤ سأموت ان لم أقتل

وقد يظن ظانّ ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا الظن من قلة الاطلاع على جملة أخبارهم فنحن لا نريد ان نأتي بآية على شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد اسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا ان ندل القارئ على ما كان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى أن يوقع سوءا ببني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله فجهز عليهم جيشا كثيفاً ليهلكهم به ويلغوم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل أخرى فتوافوا بواد اسمه ذوقار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتى تبعهم العرب الى داخل البلاد الفارسية وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار،

وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار، وحمى الذمار، واتقاء العار، وفي هذه الواقعة يقول الاعشى اعشى بني بكر:

وجند كسرى غداة الخمر صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ملمة شهباء يقدمها للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم مثل الاسنة لا ميل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا لبعلموا انا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو ان كل معدّ كان شاركنا في يوم ذي قارما أخطاهم الشرف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم ملسا بيض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت حتى تولت وكاد القوم ينتصفوا
بطارق وبني ملك مرازبة من الاعاجم في آذانها الشنف
من كل مرجانة في البحر أحرزها تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم والبيض برق بدا في عارض يكف
ما في الخدود صدود عن سيوفهم ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن الفرخ العجلي:

ما أوقد الناس من نار لمكرمة الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا باسلابهم والخيل عابسة لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

ان كنت سائلة يوماً ذوي كرم فاسقي الفوارس من ذهل بن شيبانا

واتقى فوارس حاولوا عن ذمارهم واتلى مفارقهم مسكا وريحانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر وكان المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي اذ كتب الى بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة النخوة وفيه يقول:

قوموا جميعاً على أشماط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الامن من فزعا

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا

ما زال يجلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طوراً ومتبعا

حتى استمر على شزر مريرته مستحكم الرأي لا فحاً ولا ضرعا (*)

وليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

فلي مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة من الشجاعة التي لا قوام للامم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا يعدونه شيئاً. تذكروا. ينبئك بذلك قول احد شعرائهم

خرجنا نريد مغارا لنا وفينا زياد ابو صعصعة

فتة رهط به خمسة وخمسة رهط به أربعة

ثم لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والملكة والمعارف بأقل من نصيبهم العظيم في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها من غير كتب وكان لهم الهام قليل بحركات الكواكب والانواء التي

(*) المرة طاقة الحبل والحبل الشديد الفتل. والشزر الفتل عن اليسار والمعنى استحكم امره وقويت شكيمته. واللفح ارجل الهرم والضرع الضعيف

تبعها . وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان اوطب الحيوان . والطب يقتضي ايضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها الباري في المعدن والنبات والحيوان . اما معرفتهم بالاخبار اي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق ان تسمى علماً وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتهار هذه المعرفة باسم علم الانساب أن ما ورد في الاخبار كان اليوم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل والحاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً . وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتحلقون حولهم . قال رؤبة بن العجاج قال لي النسابة البكري : يارؤبة لملك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثتهم لم يفهموني ، يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فقلت له : اني أرجو ان لا اكون كذلك . قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : أخبرني : قال « آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغا عظيما ويمكنني ان أقول انها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان

أو الاستهجان الا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وابرازه بأبدع حلة ولا ينبئك بعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الامثال ، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الاقوال ، ولا نستطيع ان نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالقارىء عن سياق السيرة ولكنا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب ، وصياغتها بابدع البيان ، ومقدار ما وعت منها تلك الأذكار. ذكروا ان عمرو بن الظرب العدواني وحمة بن رافع الدوسي اجتمعا عند ملك من ملوك حمير فقال: تناءلا حتى اسمع ما تقولان . فقال عمرو لحمة أين تحب ان تكون أياديك ؟ قال « عندذي الزلة الدميم ، وعندذي الخلة الكريم ، والمعسر العديم ، والمستضعف الحليم » قال : من احق الناس بالمقت ؟ قال « الفقير المختال » والضعيف الصوّال ، والغني القوّال » قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال « الحريص الكائد ، والمستميد[1] الحاسد ، والمخلف الواجد » قال من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال من اذا أعطي شكر ، واذا منع عذر ، واذا مُطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر » قال من أكرم الناس عشرة ؟ قال «من اذا قرب منع ، واذا ظلم صفح ، وان ضويق سمح » قال من ألأم الناس ؟ قال من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع[2] ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع »[3] قال فمن أجل الناس ؟ قال « من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر » قال فمن أحزم الناس ؟ قال « من أخذ رقاب الأسود بيديه ، وجعل

---

(١) المستميد هو المستعطي (٢) معنى كنع هنا انكمش (٣) الطبع بفتحتين هو الدنس

العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه » قال فمن أخرق الناس؟ قال من ركب الخطار ، واعتسف المنار ، وأسرع في البدار قبل الاقتدار (١) » قال من أجود الناس ؟ قال « من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود » قال فمن أبلغ الناس ؟ قال « من حلّى المعنى العزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز » قال من أنعم الناس عيشاً ؟ قال « من تحلى بالعفاف ، ورضي بالكفاف ، وتجاوز مايخاف ، الى مالا يخاف » قال فمن أشقى الناس ؟ قال « من حسد على النعم ، وسخط على القسم ، واستشعر الندم ، على ما انحتم » قال من أغنى الناس ؟ « قال من استشعر اليأس ، وأظهر التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يسخط على القسم » قال فمن أحكم الناس » قال من صمت فاذكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر » قال من أجهل الناس ؟ « قال من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما »

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيدة كاف في الدلالة على انه كان من جملة مايعنون به من التربية تثقيف ناشئهم بما عندهم من المعارف على الطريقة التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عليها الآخرون . ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لالتقاطه بسهولة ولا يكلف البليد في شيء ان يكد في تفهمه مدركته ، أو ينخي في حفظه ذاكرته ، أو في توسيمه مخيلته

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التربية على العدل ولقد اسلفنا شيئاً عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم

---

(١) يريد بالبدار معاجلة الخصم

وكذلك نعوا بمداح المناقب تشريف الاخفاء والمفاخر واجلال الطهارة وأهلها وكان من أكرم ألقابهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة وقد حازت السيدة «خديجة» هذا اللقب الشريف باستحقاق اذا كان يقال لها «الطاهرة»

فاذا عرف المطالع الكريم ان لهؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نفي السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً بان لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد القاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد او احد بل يصل ذلك الفضل بارسال رباني من يده سبحانه الى الثمرات الصغيرة التي في الاذهنة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجعلوا أكبر همهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش. فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان قل الخفاء بهم واستوفت وان بخس الوزن لهم ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم «خديجة» الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر ميزات جامعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، اولئك الذين واقام الوحي بنعتهم تمام أهله قائلا «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»